الباب الأوّل

روح الجماعات

الفصل الأوّل

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس ـ فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لايكفى لتكوين جماعة – فى اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم ـ فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور ـ انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية ـ انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً ـ فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن او اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم ـ سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا او اناثاً وعلى اى نحو اجتمعوا اما فى علم النفس فلها معنى أخر فنى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الاّ انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصا لم اجد لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم ان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقا لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم ان اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو

غرض واجد وهما الصفتان الأوليان للجماعة ابان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود اشخاص عديدين فى مكان واحد. بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير لبست اعمالهم ثوب اعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون ان يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل

قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على انواع الجماعات ينبغى ان نأتى على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون اولا الخواص التى تصدق على جميع افراد كل فصيلة قبل ان يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحا دقيقا لان نظامها يختلف اولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانيا باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير ان هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لان الفرد لا يحيي حياة واحدة لا تتغير الا فى القصص والروايات وغاية ما فى الأمر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس الا وقد بينت فى غير هذا المكان ان فى جميع القوى المدركة استعدادا لتوليد اخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغييرا فجائيا هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افرادا كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل او موثقين اولى سكينة

هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنا بوليون منهم اعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا ان نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب ان يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ماقد يؤول اليه امر الجماعات لاماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ ان الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافى مجموعها من الصفات الثابته التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ماتشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ماهو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

اهم ماتمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع افرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك

كيفما كان اولئك الافراد وكيفما تباينوا او اتفقوا فى احوال معيشتهم وفى اعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد او يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الاّ عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش لا نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية الا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير انه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكن يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب

على وجه ماينبغى ان لانغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الأول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان ادق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لايسعه ان يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا او الشعورية مسببة عن مجموع اسباب لاشعورى متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجدود التى لايحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب او الامة التى نحن منها فوراء أسباب اعمالنا التى نقصدها اسباب خفية لاارادة لنا فيها ووراء هذه اسباب كثيرة اخر اشد خفاء واكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجلّ افعالنا اليومية صادر عن اسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه افراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية واشد الناس

افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر واعظم الرجال لايتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب او هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة فى الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريبا هى التى لها المقام الاول فى حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها ابداً على الاتيان بأعمال تقتضى فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة وما يقرره

جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم ان يشتركوا فى هذا العمل الاّ بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لاالفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الأول ان الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى امياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور

هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى افراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابليته التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا ان نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها انه اصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه

وعادته وقد دلّ النظر الدقيق فى احوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لايلبث ان يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او باسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك ايضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعا لاقبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة اشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم

بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض اخر كما وقع احيانا من ان لفظا سعيدا او خيالا يمثل فى الوقت المناسب امام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال

والخلاصة ان انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فورا من الافكار التى اشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن اجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل مايخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة اشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ماهبت

ذلك هو السر في أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من افرادها اذا عرضت عليه وحده وفي ان المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال مايرفضه كل عضو من اعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير افظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس براءة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس في ذواتهم وحصدوا بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد في الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقاً كلياً بل انه قبل ان يفقد استقلاله الذاتي تتغير افكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفاً والمتردد سريع الاعتقاد والتقي شريراً والجبان شجاعاً هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ اغسطس سنه ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد ادراكاً ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه

او اردأ على حسب الاحوال والأمر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح ان الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح ايضا انها شجاعة فى اوقات كثيرة اخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين او تأييد المذهب اويستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين او للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لايقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الأمم وهى هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات واخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب — الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة — لاشىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية — تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق — طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة — بعض امثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم — فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة —

فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات امر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسائلة ميالة الى التساهل والأمرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خضوع الجماعة امام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتا من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تعتاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من اخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها — علة ذلك وامثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله — شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

بعد ان اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى ان نأتى عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك

وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على ان ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى ثم هو لا يقنع من لا الم له بتلك الاحوال أقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى اغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأوليه انها منقادة عادة الى العمل من دون ان تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبى فى افعالها اكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها

كاملة من حيث التنفيذ الآ ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجيه وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بان فى الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط اعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شئ من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة او قاسية عليها مسحة الاقدام او الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت انواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم ان تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من افظع الاعمال الى اكبرها رحمة وكرماً فما اسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما ايسر ماتكون ضحية ايضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها

تأييد كل عقيدة فى الوجود الاّ من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى ان نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ اعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه اراد لوجد مائة الف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له [1]

وعلى ذلك لا يوجد من افعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل اوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بامثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت أمرته مالم يكن فى الحسبان

خصوصا اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى الامور كمنظم خفى لتعسر جداً البقاء على الديمقراطية (الحكومات النيابية) الاّ انه بقدر ما تتطرف الجماعة فى ارادة الشئ تسرع بالعدول عن تلك الأرادة فانها لاقدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لاتقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالهمجى لا تطيق وجود حال بينها وما تريد والذى يساعدها على ان لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيهاشعوراً بقوة لاحد لهافتصور المستحيل يعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر او سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى ان يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لا يثنيه عنه شئ فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ ان خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالأولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلىّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية واقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك باجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نباء برقى عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان اشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ أخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً اكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى الا قليلا ولم تتزحزح من اجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء واشدها شبها بها الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على الدوام

مماسا لصخرة زيبان [1] وموقنا انه سيتدهور يوما من الايام

٣

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من اخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر او اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لاعلى مايرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل

---

(١) هى صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها

او الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محاقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شانها ان تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (١)

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب اخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى

---

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك انهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضؤ ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة اميال

خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه ادنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى مابين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها ان تصل الى مثل هذا التميز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش تضيفه الى اصل الحادثة فهى لاتفرق بين الشئ وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وماوقع تحت الحس اولا

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان امزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان اول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل ان يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق اسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله احدهم

اولا [1] فما لبث التأثر والعدوى ان مثلاه للبقية جسما مرئياً هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى في رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من اهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لاتأثير لتلك الصفة في موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتميز ماداموا فى الجماعة ورب معترض يقول ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد ان اترك القارئ امام قضايا لادليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث انقلها بلا انتقاء من بين الوف الحوادث التى يمكن سردها

وابدأ برواية واقعة من اظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

صنوفاً وانواعاً مابين جاهل غبي وعالم المعى رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس فى كتابه الذى الفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية)قال

كانت المدرعة (لا بيل بول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قدانفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافيـة وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشـير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جليا زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة

كل ذلك كان خيالا فقد انفذ الربان زورقا صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيـه من العساكر والضباط اكداساً من الناس يموجون ويمدون ايديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه اغصان اشجار مغطاة باوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحال لاتحتمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا

جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى ان تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها مالكل الجماعات من الصفات وان كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحدمنهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفى الحال تنزوى ملكة التميز وتنطفئ روح النقد فى كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك مارواه لنا موسيو (دافى) وهو احد علماء النفس المحققين وقدنشرته حديثاً مجلة (اعصر العلومالنفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار اهل النظر وفيهم عالم من اشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم اشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم اجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على

(الأردواز)وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التى وقعت امامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات فى يده اعرب لهم ان ما كان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التى يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على ان الطريقه التى استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير فى افكار جماعته ماجعلها ترى مالم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم فى المنوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز فى عقول سامية بعد ان أنذرت فكم يكون من السهل التأثير فى عقول الجماعة العادية

والامثلة التى من هذا القبيل لاتحصى . انا اكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين

وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيدة واتفقت اقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضى التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الاّ شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته ماوقع فى الامثلة التى سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك واكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير فى هذه الحوادث وامثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند احدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة فى ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشاء عدوى التأثر بذلك الخيال الأول فاذا كان اول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفى ان يكون فى الجثة التى تعرض عليه علامة او أثر خاص كالذى قد يكون فى الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولولم يكن بينهما ادنى شبه حقيق فى الخلقة اذ ذاك يصير

الخيال الأول اشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الأدراك وتعطل ملكة التميز تماما . وحينئذ لا يرى الانسان الشئ الذى امامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر فى خطأ الامهات اللاتى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث اولادهن كما وقع فى الحادثة الأتيه وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها اخيرا ومنها يدرك القارئ درجة التأثر الذى بينا كيفيته . عرف غلام جثة غلام وكان مخطئا وترتب على ذلك ان اشخاصا كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول . وحدث على اثر هذه المعرفة المتكررة امر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدى . فلما دخلت عليه اخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضى ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جئ بزوج اختها فما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيلبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة .

اجل كل اولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص بشديدى التأثر اكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات امام القضاء . فالواجب ان لا يلتفت الى قول الصبي بحال من الأحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو انهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والاّ لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولاّ ياز) من ان تبنى على شهادة صبي

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها اكثر المشاهدات خطأ وانها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر الوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيق لهذه الحملة نظراً لتناقض اقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره اخيراً أن الرواة اخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد اهم الوقائع فى حرب (سلام) وهى التى اجمع المئات من الناس على صحتها (١)

---

(١) انى اشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب واظن اننا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جميع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفها رؤساء أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على ان الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التى يمكن اقامتها لاثبات أمر من الامور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب ان تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد فى الزمن الواحد من الوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق اولئك الشهود عليه

نتج من هذا انه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس واردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أى عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ انه لاثبات للاقاصيص وان سجلت فى بطون كتب التاريخ لان خيال الجماعات لا ينفك بغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذى جاء ذكره فى الانجيل

وبهوذا آله الحب الذى ذكره القديس (تيريز) . وبدليل ان (بوذا) الذى يعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل انه لايلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فان هـذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . انا شاهدنا قصة اعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقا للضعفاء ولو صدق الشـعراء لبقى ذكره فى اكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استلب الحكم والحرية واهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذاك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لا يرون فيه الا خرافة او صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليونانى . غير انه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى

الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون ان التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة اى سواء كانت طيبة او رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التميز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لايقبل البحث . والرجل منفرداً

قد لا يقر على أمر وينفر منه نفورا لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى ثار انقلب نفوره حقدا شديدا

وتزداد شدة المشاعر غلوا على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيرا قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالبا فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقا بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى اقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام بأكرم الاعمال

والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيهـا . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما ان الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الاّ المشاعر المغـالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتـذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة .لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعـدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو ايضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها ان يفخموا فى ألقابهـم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد ان الجماعة تطلب من ابطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيق .

والكثير ينسب هـذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير انها قواعد لاتنطق غالباً

على مايقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا انه يقتضى صفات مخصوصة وكثيرا ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى انفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين [1] . ولو انه أتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا

---

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحا دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد ان رفضها مديرو الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فانفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة في فرنسا واكثر من الف مرة في بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز ان يصدر عنهم مثل تلك الاحكام او يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع

رجحان تأثير الاخلاق القومية فى هذا المقام . لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الاّ بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة ابداً . فقد سبق لى بيان ان مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده ايضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى او تنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم

قلنا ان الجماعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً

كبيرة من شأنها ان تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بان يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

بسيطا وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها او ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن فى المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت انه حق أو باطل وكانت تشعر شعورا تاما بقوتها كانت أمرتها مساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . اما الجماعة فلا تطيق ذلك أبدا وأقل خلف يأتى به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحيانا

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير انهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا ايضا يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وافكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية

اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى اشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . واخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم ان يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيها بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم

سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تحنى الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقه الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على الجماعات دائما هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور اعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان اشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم اشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفا لما الجم جميع الحريات وائقل بيده التى من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الامم اذ لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى

الجماعات استبدال اسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الامة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليه على الدوام . اما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت فى الظهور الاّ بعد ان تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

اخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح

العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة رقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتا ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا ان تقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان اعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن اعمالها فاذا هو انخرط فيها امن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . الا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع امثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة

الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بانيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها اهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل انواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار او باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وامثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست

هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيرا ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتا ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع انه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئا من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة ايام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مزولة الأثر نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى احوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بان جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وارفع الفضائل ومن السذاجة ان نقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالبا

بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزمجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب او سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما انها تميل الى الدنايا هى اهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح ان يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى او صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغى لنا ان نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الاَّ النادر لأنها لو تعقلت احياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات ـ الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ في اجتماع الافكار المتناقضة ـ تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ـ اثر الافكار في الحياة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التي تجمع الجماعات بينها الا في الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهي تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة في الامم ـ كيف تبدو الحوادث التي لها قوة التأثير في تخيل الجماعات

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنية تقوم على افكار اساسية محدودة قلما تتجدد وشرحنا كيف تمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخل عليها الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم اوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لا نعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة اخرى وانما نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الأول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوعٍ بفرد من الافراد او مذهب من المذاهب والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتا مثال ذلك

العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدستورية والاجتماعية
فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية تشبه الماء الذى يجرى الهوينا فى النهر
والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام
التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة اهميتها اظهر امام
العين من سير النهر نفسه

وقد اخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا
فى الاضمحلال شيئا فشيئا ففقدت ما كان لها من المتانة
والرسوخ وتزعزعت من اجل ذلك النظامات التى كانت
تقوم عليها وفى كل يوم تظهر افكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الا
ان القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل
تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها
لا تسود ولا تتمكن الا اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة
بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن
تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة
اقل رابطة عقلية من التشابه او التلازم فيجوز ان يحل بعضها

محل بعض كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التى اجتمعت فى مدركتها فتأتى باشد الاعمال تناقضاً وتضارباً

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هى تشاهد أيضاً فى الافراد لا فرق فى ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل انى شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع افكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه او تلك تظهر فى الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض فى الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيق لان الافكار الموروثة هى

التي لهما في الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبته قوتان ورأيتان جاءتا من اختلاط المشاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها في علم النفس كبيرة جداً فاني أحسب أنه يجب لادراكها عشر سنين يقضيها الباحث سائحاً بين الأمم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الا اذا تغيرت في الغالب تغيراً تاماً واكثر ما يشاهد ذلك في الافكار الفلسفية او العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات. ويختلف التغيير باختلاف الجماعات او الامم التي هي منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكار ما هو راق ومنها ما هو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقيا فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على ان منزلة الفكر لا اهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ

المعول عليه انما هو الاثر الذى ينتج عنه الا ترى ان الافكار الدينية فى القرون الوسطى والافكار الديمقراطيه فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الاّ أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لاثرها فيما مضى وستكون ولاحد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لا يظهر اثره الاّ اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتى على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهم القارئ ان اثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير انهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم

بعد قليل من الايام رايتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لانهم خاضعون لسلطان افكار اصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات اعمالنا واقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج آثارا متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التى ادت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت امة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى اى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما ان وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً

طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائما متأخرة فى افكارها عدة اجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون ان سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشئ من صحتها

٢

تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير ان طبقة الأدلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الاّ من باب التشبيه

وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الاّ ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات ببعضها

من حيث المشابهة او التلازم ظاهرية لا حقيقية فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة ان الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك ان الزجاج وهو شفاف ايضا يجب ان يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور ان اكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل او كالأجير الذى هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل ان تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين اشياء متخالفة لا رابطة بينها الا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا تروو والادلة التى يقدمها اليها اولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل او هى تتعقل خطأ وانها لا تتأثر بالمعقول وكثيرا ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى احدثته فى سامعيها على ما بها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى ان تلك الخطب انما صيغت لتؤثر فى الجموع لا ليقرأها

العلماء . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو ألقيت خطب في عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكليمات التي دخلت في الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد اى يجعلها غير قادرة على تميز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً في امر ما . اما الافكار التي تقبلها هي فهي التي تلقى اليها لا التي يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات في هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتي

٣

تخيل الجماعات

—

الجماعات كالذوات التي لا تتعقل في حدة التخيل وفعله

الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان او واقعة او رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات اشبه بحال المنوّم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف ان شيئا ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالبا

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيق

لا تتعقل الجماعات الاّ بالتخيل ولا تتأثر الاّ به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لافعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الأشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرّت القرون وتعاقبت الدهور

ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى انه في عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكى متأثرا بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريباً وهي ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام

وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى اشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً فى أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انى اتممت حرب الفندائيين لما تكتلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهودياً لاعدت معبد سليمان) ويظهر لى انه لم يقم منذ الأسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم مانسيه فى انتصاراته وخطبه واحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير في تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابدا بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل ان

(انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل آثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو مايتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الاّ بما فيه غرابة او سر مكنون كانتصار باهر او معجزة بالغة او جرم فظيع اوامل دونه الامل فينبغى ان ترمى الاشياء جملة على علاتها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير او مائة رزء صغير لا تؤثر اقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً او رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه ان القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى اخنت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه المقتلة لم تبد امام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام

كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت اخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودلّ الاحصاء الرسمى على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والأرزاق مالا تقدر قيمته وما هو اكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها اعنى أنه يجب ان يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات عرف كيف يقودها .

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ما هو الشعور الديني — الشعور الديني مستقل عن عبادة الالوهية — مميزات الشعور الديني — قوة المعتقدات التي لها صبغة دينية — امثلة شتى — في أن آلهة العامة لم تزل — في الصور الجديدة التي تظهر بها تلك الآلهة — التشكل الديني للالحاد — اهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية — في ان الاصلاح او قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمي وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هي اثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

—

بينا ان الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافكار او ترفضها جملة وانها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات

التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التأثير فيها تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليه وكذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لايلبث ان ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات ايام سيادة الأديان او فى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتى حصلت فى القرن الماضى رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الاعمى لأوامره واستحالة البحث فى تعاليمه والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً لا يرى او معبوداً من الحجر او من الشجر او بطلا من الشجعان او رأيا سياسياً فكله شعور تدخل فيه المعجزات

وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى اسلم الانسان عقله وارادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ او ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى افكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم ان التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا او فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الاّ اله فى نظرها . هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود

قيادة النفوس الى حتفها اكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الاّ لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دى كولنج) حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية ان الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ ان دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والاّ لتعذر ان نفهم كيف ان ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) انما اطاع القوم لان الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين

مدينة هيكلا للامبراطور (اوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسس هذا الهيكل المقام الأول فى نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك اوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور ابداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من

التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الاّ وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار انه لا بد للجماعات من دين مادامت جميع المعتقدات السياسية او الالهية او الاجتماعية لا تطمئن عندها الاّ اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن ادخال عدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج دينا يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من امر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى (نهيلست) الذى روى لنا العلامة (رستوفيسكى) قصته قال اشرق ذات

يوم نور العقل على ذلك العدمي فعمد الى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين احد المعابد وحطمها واطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحل اعتقاده الديني كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت ابداً

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الاّ اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعيه ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الفرنساوية الاّ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في ابطال ذلك الزمن الكبير الاّ قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا مانعاً يصدهم عما كانوا يشتهون

على انه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان فى الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الاّ اذا فطن الباحث انها اى الثورة أثر معتقد ديني جديد حلّ فى نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه ان يدفع الذى حلّ فى قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون ان تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر فى الوجود امثال الانقلابات التى مرّ ذكرها الاّ اذا قذفت من جوف الجماعة وليس فى استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب فى واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لا تخرج الاّ من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من

تعجيلها او تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما ان (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين احدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك